سامراً تهجرون

محمد رشيد العويد

نشر وتوزيع
مكتبة المنار الإسلامية
فاكس: ٢٦٣٦٨٤٥ - هاتف: ٢٦١٥٠٤٥
دولة الكويت

210

سامراً تهجرون

محمد رشيد العويد

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

نشر وتوزيع
مكتبة المنار الإسلامية
فاكس: ٢٦٣٦٨٤٥ - هاتف: ٢٦١٥٠٤٥
دولة الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المصطفى الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.

ما أعظم أن يكون الله معك! ألا يهون كل خطب، ويسهل كل صعب، ويقرب كل بعيد.

وما أسعدك حين يكون لقاؤك مع الله تعالى! ألا تغمرك السعادة، وتملؤك الفرحة، ويحيط بك السرور من كل جانب.

وهل تأسى على ما فاتك إذا علمت يقيناً أنه لم يكن مقدراً لك!

وهل يلهيك أمل، أو تغرّك أمنية، أو يشغلك وعد شيطاني.. عن وعد الله تعالى، الذي لا يخلف وعده، بجنة الخلد.

وما أجمل بشارة الله تعالى بأنهم ﴿**لا خوف عليه ولا هم يحزنون**﴾ تتكرر في خمس عشرة آية!

هذه بعض ثمرات صحبة القرآن الكريم، الذي يهجره قومنا: ﴿**وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا**﴾ (الفرقان: ٣٠)، ﴿**مستكبرين به سامراً تهجرون**﴾ (المؤمنون: ٦٧).

اللهم كن معنا، واشهد بأنا نحب لقاءك ونرجوه، فأعنّا على أن نعدّ لهذا اللقاء ما يجعله سعيداً بهيجاً، مفرحاً مُيسّراً.

وأعنّا يا ربنا على ألا نأسى على ما فاتنا، ولا نفرح بطراً بما آتيتنا، وأوزعنا شكر نعمك التي لا تعد ولا تحصى.

والحمد لله رب العالمين

ذو القعدة ١٤١٧هـ
آذار (مارس) ١٩٩٧م

ما أجمل أن يذكرك الله تعالى!

قال أبو عثمان النهدي: إني لأعلم الساعة التي يذكرنا الله فيها؛ قيل له: ومن أين تعلمها؟ قال: يقول الله عز وجل: ﴿**فاذكروني أذكركم**﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذِكْرُ الله إياكم أكبر من ذكركم إياه.

* * *

«سمعتُ رئيسَك يذكرك بخير ويثني عليك».

لا شك في أن وقع هذه العبارة عليك وقع طيب، وأثرها في نفسك أثر حسن، ومن هذا الأثر شيوع مشاعر السعادة والرضا في قلبك.

هذا إذا كان من ذكرك بخير هو رئيسك في العمل.. فكيف إذا كان مدير الشركة أو المؤسسة التي تعمل فيها، أو الوزير الذي تتبعه إدارتك، أو مؤسستك!

ولعل مشاعر السعادة والرضا تتزايد وتتضاعف إذا كان الذي ذكرك بخير هو رئيس الدولة التي تعيش فيها. إنك لترجو خيراً كثيراً وتأمل فضلاً عظيماً من هذا الذكر.

كيف تكون مشاعرك إذن إذا كان الذي ذكرك هو خالقك سبحانه؛ من يملك نفعك وضرك، من بيده رزقك وأجلك، من يكشف عنك كل كرب وهم وضيق، من هو أقوى وأعز وأكرم من كل قوي وعزيز وكريم؟!!

لا شك في أنها مشاعر رضا ما بعده رضا، وفرح ليس فوقه فرح، وطمأنينة لا تعدلها أي طمأنينة.

ولا ريب في أنك تُعظم الرجاء بعظم المرجو سبحانه، وتعلو فوق كل ألم، وضعف، وفقر، وعجز.

أما تراك تتمنى أن يذكرك الله سبحانه. أما تسعى إليه وتبذل من أجل أن يذكرك تعالى كل سبب.

لقد أرشدنا المولى جل شأنه إلى العمل الذي إذا قمنا به ذكرنا سبحانه. . أفما يريد كل واحد منا أن يعرف هذا العمل ويقوم به ليظفر هذا الظفر العظيم: ذكر الرحمن له؟

يقول جل شأنه: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ (البقرة: ١٥٢).

عمل واضح سهل، يقدر عليه كل عبد لله سبحانه، حين يدرك أنه بهذا الذكر ينجو ويفوز، ينجو من الشقاوة ويفوز بالسعادة في الدنيا، وينجو من النار ويفوز بالجنة في الآخرة. يقول الرازي رحمه الله «. .فإذا عرفوا كيفية التكليف وعرفوا ما في الفعل من الوعد، وفي الترك من الوعيد، سَهُل فعله عليهم»[(١)].

ولكن. . هل يكون ذكر الله باللسان وحده؟ يقول القرطبي يرحمه الله: «أصل الذكر التنبه بالقلب للمذكور والتيقظ له. وسمي الذكر باللسان ذكراً لأنه دلالة على الذكر القلبي؛ غير أنه لما كثر إطلاق الذكر على القول اللساني صار هو السابق للفهم»[(٢)].

إذن فإن أساس الذكر وحقيقته في القلب، ومن كان يردد ذكر الله بلسانه وقلبُه غافل لم يُعدّ ذاكراً.

كذلك من زعم أنه يذكره سبحانه وهو عاصٍ له، لا يطيع ما يأمره به تعالى؛ لم يُعدّ ذاكراً لله كذلك. قال سعيد بن جبير: «الذكر طاعة لله؛ فمن لم يُطعه لم يذكره وإنْ أكثرَ التسبيح والتهليل وقراءة القرآن».

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم «من أطاع الله فقد ذكر الله وإنْ أَقَلَّ صلاته وصومه وصنيعه للخير، ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثَّر صلاته وصومه وصنيعه للخير»[(٣)].

والذكر، كما يكون بالقلب واللسان، يكون بالجوارح. وذكره تعالى بالجوارح

(١) تفسير الرازي - ج٤ - ص١٤٣-١٤٤.
(٢) تفسير القرطبي - المجلد الثاني - ص١٧١.
(٣) نفسه.

هو استغراقها بالأعمال التي أُمر العباد بها، وخالية عن الأعمال التي نهوا عنها. وعلى هذا سمى الله تعالى الصلاة ذكراً بقوله: ﴿**فاسعوا إلى ذكر الله**﴾.

وهكذا فإن ذكر الله يتضمن جميع الطاعات كما قال الرازي، وأنه سبحانه أجمل ذكره بأمره ﴿**اذكروني**﴾ حتى يدخل الكل فيه كما قال سعيد بن جبير.

هذا ذكر العبد لله فماذا يعني ذكر الله للعبد؟

قال السدي: ليس من عبد يذكر الله إلا ذكره عز وجل، لا يذكره مؤمن إلا ذكره الله برحمته.

وقال ذو النون المصري: من ذكر الله تعالى ذكراً على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضاً من كل شيء.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ما عَمِل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله.. من ذكر الله.

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله عز وجل يقول: أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحركت بي شفتاه»[(١)]

وأورد الرازي ماذا يعني ذكر الله عبده:

١ - اذكروني بطاعتي أذكركم برحمتي.

٢ - قول أبي مسلم: أمر الخلق بأن يذكروه راغبين راهبين، وراجين خائفين، ويخلصوا الذكر له عن الشركاء، فإذا هم ذكروه بالإخلاص في عبادته وربوبيته ذكرهم بالإحسان والرحمة والنعمة في العاجلة والآجلة.

٣ - اذكروني بالثناء والطاعة أذكركم بالثناء والنعمة.

٤ - اذكروني في الدنيا أذكركم في الآخرة.

٥ - اذكروني في الخلوات أذكركم في الفلوات.

٦ - اذكروني في الرخاء أذكركم في البلاء.

(١) نفسه ص١٧٢.

٧ – اذكروني بطاعتي أذكركم بمعونتي.

٨ – اذكروني بمجاهدتي أذكركم بهدايتي.

٩ – اذكروني بالصدق والإخلاص أذكركم بالخلاص ومزيد الاختصاص.

١٠ – اذكروني بالربوبية في الفاتحة أذكركم بالرحمة والعبودية في الخاتمة[١].

هي، إذن، ثمرات كثيرة كبيرة ثمرات ذكر الله سبحانه عبده الفقير إلى رحمته، المحتاج إلى عونه وتوفيقه.

﴿فاذكروني أذكركم﴾

يا للتفضل الجليل الودود! الله، جل جلاله، يجعل ذكره لهؤلاء العبيد مكافئاً لذكرهم له في عالمهم الصغير.. إن العبيد حين يذكرون ربهم يذكرونه في هذه الأرض الصغيرة.. وهم أصغر من أرضهم الصغيرة! والله حين يذكرهم يذكرهم في هذا الكون الكبير.. وهو الله.. العلي الكبير.. أي تفضل! وأي كرم! وأي فيض في السماحة والجود!

﴿فاذكروني أذكركم﴾

إنه الفضل الذي لا يفيضه إلا الله الذي لا خازن لخزائنه، ولا حاسب لعطاياه. الفضل الفائض من ذاته تعالى بلا سبب ولا موجب إلا أنه هكذا هو سبحانه فياض العطاء.

وفي الصحيح يقول الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرّب إليّ بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرّب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» صحيح البخاري.

إنه ذلك الفضل الذي لا يصفه لفظ.. ولا يعبر عن شكره الحق إلا سجود القلب..[٢]

---

(١) تفسير الرازي – ج٤ – ص١٤٤.

(٢) في ظلال القرآن مجلد (١) ص١٤٠.

ولقد تجاوزت ثمرات ذكر الله أصحاب هذا الذكر إلى من جالسهم لحاجة له عندهم. . . فأي فضل عظيم هذا! يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر. فإن وجدوا قوماً يذكرون الله؛ تنادوا: هلموا إلى حاجتكم. قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم؛ وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك. قال: فيقول هل رأوني؟ فيقولون: لا والله ما رأوك. قال: فيقول وكيف لو رأوني؟ قال: يقولون؛ لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشدَّ لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً. قال: يقول فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول وهل رأوها؟ قال: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشدَّ لها طلباً، وأعظم فيها رغبة. قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون من النار. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رأوها. قال: يقول فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشدَّ لها مخافة. قال: فيقول فأشهدكم أني قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم» صحيح البخاري.

قال الحافظ: «هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم»: تعريف الخبر (أي الجلساء) يدل على الكمال. أي هم القوم، كل القوم، الكاملون فيما هم فيه من السعادة. فيكون قوله (لا يشقى بهم جليسهم) استئنافاً لبيان الموجب، وفي هذه العبارة مبالغة في نفي الشقاء عن جليس الذاكرين[١].

ألا يجعل ما سبق جميعُه ذكرَ الله تعالى محبوباً ومعشوقاً ومرغوباً فيه؟ ألا يدفع العبد إلى طلبه، والسعي إليه، وملء الأوقات به؟ ألا يقدمه المؤمن على كثير مما يشغله، ويهتم به، وينصرف إليه؟

ما أجمل أن تذكر الله تعالى! وما أجمل أن يذكرك الله تعالى!

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ص٧٣٢.

حين يُلهي الأمل
وتغرّ الأماني
ويعد إبليس

آمال تُجمّلها نفوسنا، وأمانٍ تتزين لنا، ووعود يغرينا بها إبليس اللعين؛ هي أكثر ما يصرف الإنسان في هذه الدنيا عن ربه، ويشغله عن آخرته، وينسيه أن هناك موتاً يقترب منه كلما مرّ يوم من حياته.

هذه الآمال، وتلك الأماني، وهاتيك الوعود.. ذمّها الله تعالى، وأظهر سبحانه لنا كيف أن الأمل يلهي الكافرين، والأماني تغر المنافقين، ووعود إبليس تصرف أتباعه عن الحق المبين.. وذلك في آيات من الذكر الحكيم، في ثلاث سور في القرآن الكريم:

١ - قال تعالى في سورة الحجر: **﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾** (الآيتان ٢ و ٣).

٢ - وقال تعالى في سورة الحديد: **﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً. فضرب بينهم بسور له باب؛ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ينادونهم: ألم نكن معكم؟ قالوا: بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله، وغركم بالله الغرور﴾** (١٣-١٤).

٣ - وقال تعالى في سورة الإسراء: **﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس. قال: أأسجد لمن خلقت طيناً؟ قال: أرأيتك هذا الذي كرّمت عليَّ.. لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً. قال: اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً واستفزز من استطعت منهم بصوتك، واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد، وعِدْهُم.. وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾** (٦١-٦٤).

ويُلهِهم الأمل

قال تعالى: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويُلههم الأمل فسوف يعلمون﴾ (الحجر: ٣).

﴿ويلههم الأمل﴾

وما أكثرهم. ما أكثر من يلهيهم الأمل. الأمل بمتاع جميل، وقصر شاهق، وشهرة واسعة، وأولاد وأحفاد... يلهيهم عن موت آت لا محالة، ويشغلهم عن حساب مقبل لا ريب فيه.

في مسند البزار عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أربعة من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا».

أي والله إن طول الأمل من الشقاء.. أليس شقياً من شغلته العاجلة عن الآجلة، والزائل عن الباقي، والفاني عن الخالد؟

يقول القرطبي: «وطول الأمل داء عضال، ومرض مزمن، ومتى تمكّن من القلب فسد مزاجه، واشتد علاجه، ولم يفارقه داء، ولا نجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء، ويئس من برئه الحكماء والعلماء»[(١)].

«وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا والانكباب عليها، والحب لها والإعراض عن الآخرة»[(٢)].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخرها بالبخل والأمل».

البخيل لا ينفق أملاً في أن يزيد ماله الذي لا بد مفارقه.

والمؤمل لا ينفق من وقته في سبيل الله غفلة منه عن أجل يضع حداً لكل آماله الدنيوية.

---

(١) و (٢) تفسير القرطبي - الجزء العاشر - ص٣.

يروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال: يا أهل دمشق.. ألا تسمعون من أخ لكم ناصح؟ إن من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً، ويبنون مشيدا، ويأملون بعيدا؛ فأصبح جمعهم بورا، وبنيانهم قبورا، وأملهم غرورا. هذه عاد قد ملأت البلاد أهلاً ومالاً وخيلاً ورجالاً.. فمن يشتري اليوم تِرْكتهم بدرهمين! وأنشد:

يا ذا المؤمّلُ آمالاً وإنْ بعدت ... منه ويزعمُ أنْ يحظى بأقصاها
أنّى تفوزُ بما ترجوهُ ويْكَ وما ... أصبحتَ في ثقةٍ من نيلِ أدناها

أجل أيها المؤمل آمالاً بعيدة.. تحسب أنك ظافر بها جميعاً، مهما احتاجت من أزمان وأزمان، وأنت لا تضمن نيل أقربها إليك!

«قال الحسن البصري: «ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل». وصدق رحمه الله فالأمل يُكسل عن العمل، ويورث التراخي والتواني، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويُخلد إلى الأرض، ويُميل إلى الهوى. وهذا أمر قد شوهد بالعيان.. فلا يحتاج إلى بيان، ولا يُطالب صاحبه ببرهان. كما أن قصر الأمل يبعث على العمل، ويحيل على المبادرة، ويحث على المسابقة»[1].

يقول صاحب الظلال رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل﴾: ذرهم فيما هم فيه من حياة حيوانية للأكل والمتاع. لا تأمل فيها ولا تدبير ولا استطلاع. ذرهم في تلك الدوامة: الأمل يلهي والمطامع تغر، والعمر يمضي والفرصة تضيع. ذرهم فلا تشغل نفسك بهؤلاء الهالكين، الذين ضلوا في متاهة الأمل الغرور، يلوح لهم ويشغلهم بالأطماع، ويملي لهم فيحسبون أن أجلهم ممدود، وأنهم محصّلون ما يطمعون لا يردهم عنه راد، ولا يمنعهم منه مانع. وأن ليس وراءهم حسيب؛ وأنهم ناجون في النهاية بما ينالون مما يطمعون!

---

(١) تفسير القرطبي - الجزء العاشر - ص٣.

وصورة الأمل الملهي صورة إنسانية حية. فالأمل البراق ما يزال يخايل لهذا الإنسان، وهو يجري وراءه، وينشغل به، ويستغرق فيه، حتى يجاوز المنطقة المأمونة؛ وحتى يغفل عن الله، وعن القدر، وعن الأجل؛ وحتى ينسى أن هنالك واجباً، وأن هنالك محظورا؛ بل حتى لينسى أن هنالك إلها، وأن هنالك موتا، وأن هناك نشورا.[1]

وغرتهم الأماني

﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً، فضرب بينهم بسور له باب؛ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب. ينادونهم: ألم نكن معكم؟ قالوا: بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله. وغركم بالله الغرور﴾ (الحديد ١٣-١٤).

هناك، في آية سورة الحجر، كان الأمل يُلهي الكافرين عن الإيمان بالله تعالى، وهنا، في آيتي سورة الحديد، فتن المنافقون أنفسهم، وارتابوا، وغرتهم الأماني، وغرهم بالله الغرور.

إنهم، في ظاهرهم، مع المسلمين، يحيون وسطهم، وربما يُسَمَّون مسلمين مثلهم، لكنهم فتنوا أنفسهم؛ فاستعملوها في الفتنة، وأهلكوها بالنفاق والمعاصي، وبالشهوات والملذات.

وهم، بنفاقهم، يتربصون بالمؤمنين الدوائر، يأملون أن ينتصر الكفر ليظهروا ما في أنفسهم من حقيقة انتفاء الإيمان عنها.

وإنما دفعهم إلى هذا وشجعهم عليه ارتيابهم في توحيد الله، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والبعث بعد الموت. أو في ظهور الإسلام وانتصاره.

(١) في ظلال القرآن - المجلد الرابع - ص٢١٢٦.

وهم، في خضم فتنتهم أنفسهم، وتربصهم بالمؤمنين، وارتيابهم في حقيقة الإيمان، كان يغرهم اثنان: الأماني.. والغرور.

«يأكلون كما تأكل الأنعام، ويتمتعون بلذات الدنيا وشهواتها، وتلهيهم الآمال عن الآجال، فيقول الرجل منهم: غداً سأنال ثروة عظيمة، وأحظى بما أشتهي، ويعلو ذكري، ويكثر ولدي، وأبني القصور، وأكثر الدور، وأقهر الأعداء، وأفاخر الأنداد.. إلى نحو ذلك مما يغرق فيه من بحار الأماني والآمال وطلب المحال...».

وعلى الرغم من أن العمر يمضي بالإنسان، فيكبر سنه، ويشيب رأسه، ويضعف جسمه، ويقترب أجله، فإن آماله لا تضعف، وتمنياته لا تتراجع، وحرصه لا يقل. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يهرم ابن آدم ويشب فيه اثنان: الحرص على المال وطول الأمل». وعنه صلى الله عليه وسلم أنه نقّط ثلاث نقط وقال: «هذا ابن آدم، وهذا الأمل، وهذا الأجل.. ودون الأمل تسع وتسعون منيّة.. فإن أخذته إحداهن؛ وإلا فالهرم من ورائه».

الآخرة التي يجب أن يبقى قلب المؤمن معلقاً بها، مبتغياً في ما آتاه الله دارها، ينسيها طول الأمل.. كما يروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: إنما أخشى عليكم اثنين: طول الأمل واتباع الهوى؛ فإن طول الأمل يُنسي الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق[1].

وما أكثر أماني المنافقين.

منها أن يغفر الله لهم ولا يعذبهم، كما في قولهم (سيغفر لنا). وأن تمتد بهم الأعمار.. فيؤجلون التوبة.

أما الغرور، فهو الشيطان يغر أولياءه ويخدعهم فيصدقونه ويتبعونه.

قال بعض العلماء: إن للباقي بالماضي معتبراً، وللأول بالآخر مزدجراً،

---

(١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي - مجلد ١٩ - ص١٥٥.

والسعيد من لا يغتر بالطمع، ولا يركن إلى الخُدع، ومن ذكر المنيّة نسي الأُمنيّة، ومن أطال الأمل نسي العمل، وغفل عن الأجل.

عن ابن عباس رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم خطّ لنا خطوطاً، وخطَّ منها خطاً ناحية فقال: «أتدرون ما هذا؟ هذا مثل ابن آدم ومثل التمني.. وتلك الخطوط الآمال.. بينما هو يتمنى إذ جاءه الموت».

وعن ابن مسعود قال: خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً مربعاً، وخطّ وسطه خطاً وجعله خارجاً منه، وخط عن يمينه ويساره خطوطاً صغاراً فقال: «هذا ابن آدم وهذا أجله محيط به، وهذا أمله قد جاوز أجله، وهذه الخطوط الصغار.. العراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا.. وإن أخطأه هذا نهشه هذا»[(١)].

ويعدهم الشيطان غرورا

«وعِدْهم.. وما يعدهم الشيطان إلا غرورا».

وإبليس مأذون في استخدام وسائله كلها، ومنها الوعود المغرية الخادعة «وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا» كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص، والوعد بالغنى من الأسباب الحرام. والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل القذرة والأساليب الخسيسة..

ولعل أشد الوعود إغراء الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة، وهي الثغرة التي يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب التي يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة.. فيتلطف حينئذ إلى تلك النفوس المتحرجة، ويزين لها الخطيئة وهو يلوّح لها بسعة الرحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة![(٢)]

والمنساقون خلف إبليس، المؤمّلون بوعوده، متنوعون، فمنهم العالم الذي يعده الشيطان بالشهرة والمال، ويوجّه نيته نحوهما، فلا يتقي الله في علمه.

---

(١) تفسير القرطبي - الجزء ١٧ - ص٢٤٧.

(٢) في ظلال القرآن - مجلد ٤ - ص٢٢٣٩.

والتاجر يعده الشيطان بالثراء، ويغريه بالغش والربا وغيرهما من المحرمات.

والشاب يعده إبليس بالمتع واللذائذ، ويغريه بالزنا، فيندفع غير مكترث بحرمة.

والمقاتل يعده بالسطوة والغلبة، والانتقام من خصمه، والثأر لقيمة جاهلية.

والسارق يعده بكثرة المال، وزيادة الثروة، وهو يعميه عن حرمة ما يأخذه من مال.

إنها وعود كثيرة، لكنها، جميعها، وعود خادعة كاذبة.

هكذا يلهي الأمل، وتغرّ الأماني، ويعد إبليس غروراً. فكيف يتقي المسلم هذا كله، ويكون منه على حذر؟

هذا بعض ما أقترحه:

١ - أن يثبت المسلم في تصوره، واعتقاده، وإحساسه.. أن ما به من نعمة في الصحة، والعلم، والمال، والولد.. وغيرها كثير كثير، هو من الله سبحانه وتعالى: ﴿**وما بكم من نعمة فمن الله**﴾ (النحل: ٥٣). ومن ثم فإن أي نقص في أي نعمة، أو زيادة فيها، هو بيد الله سبحانه وحده.

إذا استقر هذا في اعتقاد المسلم فإنه يبني حصانة لا تقوى على اختراقها آمال وأماني ووعود.

٢ - لا ضير أن يسعى المسلم إلى زيادة ماله، وزيادة علمه، وزيادة ولده.. ولكن ليثبت في اعتقاده أيضاً أنه إنما يبتغي بهذا كله وجه الله تعالى والدار الآخرة «**وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا**» النصيب غير المبطر، غير الملهي عن الحق، غير المنسي لله تعالى.

وهذا يجعله مطمئناً.. لا يحزن على نقص مال، ولا على فوات متعة،.. وأيضاً تزيد حصانته أمام أمل مُلْهٍ، وأمنية مغرية، ووعد شيطاني خادع.

٣ - أن يتذكر الموت دائماً، ويتأمل في من يموت من أقاربه ومعارفه ومشاهير

الدنيا، ممن أوتوا الشهرة، أو المال، أو غيرهما، لكن الموت أخذهم من هذا كله، ولم يتركهم له.. ولم يتركه لهم.

إن تذكر الموت يبعد الآمال الملهية، والأماني الغرورة، والوعود الجاذبة.

فيا أيها المسلم.. هلا كنت حذراً.. مثل من قال الله فيه ﴿**أمن هو قائم آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة**﴾ (الزمر: ٩).

وهلا كنت ذاكراً.. من الذين قال اللهم فيهم ﴿**الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض: ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار**﴾ (آل عمران: ١٩١).

وهلا كنت متقياً ليكون الله معك: ﴿**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾ (النحل: ١٢٨).

إذا كنت ذاكراً، وحذراً، ومتقياً.. فلن يلهيك أمل، ولن تغرك أمنية، ولن يخدعك إبليس بوعوده.. بإذن الله تعالى.

لكيلا تأسوا على ما فاتكم

ما أحوج كل إنسان؛ في قلقه اليومي، وهمّه المتجدد، وحزنه على ما يفوته، أو غروره بما يؤتاه، وبطره بما يُرزقه من مال، وافتتانه بما يصيبه من خير... ما أحوجه إلى تدبر هاتين الآيتين الكريمتين من كتاب الله تعالى:

﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض، ولا في أنفسكم، إلا في كتاب، من قبل أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير* لكيلا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور﴾ (الحديد: ٢٢-٢٣).

ألا تهون مع هاتين الآيتين المصائب، وتتضاءل الخطوب، وتتلاشى الأحزان، ويحل في النفس الرضا، وتنسكب السكينة، ويشيع الشعور بالأمن في الحنايا كلها.

هل لحزن بعد هذا أن ينال من مؤمن، أو يضعفه، أو يحرمه رضاه وتسليمه، أو يسلبه شيئاً من إيمانه ويقينه!

«ما أصاب من مصيبة في الأرض» من زلزال، أو جدب، أو هدم، أو قلة ثمر، أو غلاء أسعار، أو تتابع جوع، أو غير هذا، وهو كثير كثير مما يحزن الإنسان ويهمّه، ويقلقه ويغمّه، حتى تسودّ الدنيا في وجهه، وتتغلق نوافذ الأمل أمامه، فيركبه اليأس، ويقنط من روح الله، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

«ولا في أنفسكم» وما أكثر ما يصيب النفس من مرض وقهر وإيذاء، وفقدان عضو من رجل أو يد، أو فقدان حاسة من سمع أو بصر، أو فقدان زوج أو ولد، أو أخ أو عزيز...

حتى ما يصيب النفس من خير؛ مثل كسب مال، أو ارتقاء في منصب، أو نيل حظوة، أو كثرة ولد، أو اتساع شهرة...

كل هذا في كتاب عند الله تعالى من قبل أن يخلق هذه الأرض أو هذه النفس، فليس لها، أي هذه النفس، أن تغتر بما آتاها الله، أو تفرح فرحاً يبطرها فلا تشكر.

كما أنه ليس عليها أن تحزن على ما فاتها؛ لأن ما فاتها لم يكن مقدراً لها: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم﴾.

يقول الألوسي: «من علم أن الكل مقدر: يفوت ما قُدِّر فواته، ويأتي ما قُدِّر إتيانه لا محالة؛ لا يعظم جزعه على ما فات ولا فرحه بما هو آت»[1].

ثم يقول: «والمراد نفي الحزن المُخرِج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى، ورجاء ثواب الصابرين، ونفي الفرح المطغي الملهي عن الشكر. وأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام، والسرور بنعمة الله تعالى والاعتداد بها مع الشكر.. فلا بأس بهما»[2].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن من أصابته مصيبة جعلها صبراً، ومن أصابه خير جعله شكراً.

وقال عكرمة: اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبرا.

وقال الرازي في التفسير الكبير: «إخبار الله عن كون هذه الأشياء واقعة بالقضاء والقدر، ومثبتة في الكتاب الذي لا يتغير؛ يوجب ألا يشتد فرح الإنسان بما وقع، وأن لا يشتد حزنه بما لم يقع، وهذا هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم: «من عرف سرَّ الله في القدر هانت عليه المصائب»[3].

قال المبرد: ليس المراد من قوله تعالى: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ نفي الأسى والفرح عن الإطلاق؛ بل معناه: لا تحزنوا حزناً يخرجكم إلى أن تهلكوا أنفسكم، ولا تعتدوا بثواب على فوات ما سلب منكم، ولا تفرحوا فرحا شديداً يطغيكم حتى تأشروا فيه وتبطروا، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ فدل بهذا على أنه ذمَّ الفرح الذي يختال فيه صاحبه ويبطر، وأما الفرح بنعمة الله والشكر عليها فغير مذموم[4].

---

(١) و (٢) روح المعاني - مجلد ١٤ - الجزء ٢٧ - ص١٨٧.
(٣) و (٤) التفسير الكبير - مجلد ١٥ - الجزء ٢٩ - ص٢٣٨-٢٣٩.

عن عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» ورواه مسلم في صحيحه من حديث عبدالله بن وهب وحيوة بن شريح ونافع بن زيد. ورواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿**لكيلا تأسوا على ما فاتكم**﴾ أي أعلمناكم بتقدم علمنا، وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها؛ لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم لأنه لو قدّر شيء لكان. ﴿**ولا تفرحوا بما آتاكم**﴾ أي جاءكم. وآتاكم أي أعطاكم. وكلاهما متلازم. أي لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً تفخرون بها على الناس، ولهذا قال تعالى: ﴿**والله لا يحب كل مختال فخور**﴾ أي مختال في نفسه متكبر فخور على غيره[١].

إن اتساع أفق النظر، والتعامل مع الوجود الكبير، وتصور الأزل والأبد، ورؤية الأحداث في مواضعها المقدرة في علم الله، الثابتة في تصميم هذا الكون.. كل أولئك يجعل النفس أفسح وأكبر وأكثر ثباتاً ورزانة في مواجهة الأحداث العابرة؛ حين تتكشف للوجود الإنساني وهي مارة به في حركة الوجود الكوني.

إن الإنسان يجزع ويستطار وتستخفه الأحداث حين ينفصل بذاته عن هذا الوجود، ويتعامل مع الأحداث كأنها شيء عارض يصادم وجوده الصغير. فأما حين يستقر في تصوره وشعوره أنه هو والأحداث التي تمرّ به، وتمرّ بغيره، والأرض كلها.. ذرات في جسم كبير هو هذا الوجود.. وأن هذه الذرات كائنة في موضعها في التصميم الكامل الدقيق، لازم بعضها لبعض، وأن ذلك كله مقدر مرسوم معلوم في علم الله المكنون.. حين يستقر هذا في تصوره وشعوره، فإنه يحس بالراحة والطمأنينة لمواقع القدر كلها على السواء، فلا يأسى على فائت أسىً يضعضعه ويزلزله، ولا يفرح بحاصل فرحاً يستخفه ويذهله. ولكن يمضي مع قدر

(١) تفسير القرآن العظيم - الجزء ٤ - ص٣١٤.

الله في طواعية وفي رضى. رضى العارف المدرك أن ما هو كائن هو الذي ينبغي أن يكون!

وهذه درجة قد لا يستطيعها إلا القليلون. فأما سائر المؤمنين فالمطلوب منهم ألا يخرجهم الألم للضراء، ولا الفرح بالسراء، عن دائرة التوجه إلى الله، وذكره بهذه وبتلك، والاعتدال في الفرح والحزن[1].

وإذا كان العقل الإنساني يجد أن معرفة ما سيقوم به بلايين الناس، قبل خلقهم، وعلى مدى عشرات الآلاف من السنين؛ صعباً، ولو اجتمع لأقل منه الإنس والجن، فإنه سبحانه يخبرهم بأنه عليه هين يسير: «إن ذلك على الله يسير». يقول ابن كثير: «أي أن علمه تعالى الأشياء قبل كونها، وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها؛ سهل على الله عز وجل، لأنه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون»[2].

ما أعظم الخير الذي يعمّ المجتمع لو رُبِّيَ أفراده على ما تحمله هاتان الآيتان الكريمتان من معان وقيم وفضائل.

أما كانت تختفي تلك الانهيارات العصبية التي تصيب مَنْ فقد ولده أو ماله أو منصبه أو عمله أو عضواً من أعضاء جسمه.

أما ينقشع هذا الطمع الذي يملأ النفوس ولا تكاد تسلم منه نفس.

ألا تصبح العلائق الاجتماعية أوثق؛ تغذيها الرحمة، ويقوّيها التعاون، ويحميها الحب.

ألا يهدأ هذا اللهاث المحموم على لذات الدنيا وزخارفها ومتاعها الزائل.

إن أوجه الخير وصوره التي تكفلها هاتان الآيتان لكل مجتمع يُربَّى أفراده عليهما.. كثيرة كثيرة. وعظيمة عظيمة.

---

(١) في ظلال القرآن - الجزء ٢٧ - ص٣٤٩٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم - الجزء ٤ - ص٣١٤.

لا خوف عليهم
ولا هم يحزنون

﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

تكرر هذا الوصف من الله تعالى، لحال عباده المؤمنين، أربع عشرة مرة في القرآن الكريم. وهذا يؤكد عظم ما تحمله هذه الحال من بشارات كبيرة للمؤمنين، بحسن تأملها، والنظر فيها، وبيانها، فقد يفوت كثيرين ممن يقرؤونها.. إدراك ما تجمعه من خير وسرور ورضى.

يكاد يجمع المفسرون على أن قوله تعالى **﴿لا خوف عليهم﴾** إنما هو لما ينتظرهم في الآخرة، أي لما هو مقبل وآت. وأن قوله تعالى **﴿ولا هم يحزنون﴾** إنما هو على ما تركوه وراءهم في الدنيا، أي لما ذهب ومضى.

يقول القرطبي رحمه الله: الخوف هو الذعر.. ولا يكون إلا في المستقبل. والحُزْن والحزَن: ضد السرور، ولا يكون إلا على ماض[1].

ويصير المعنى في الآية: فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا[2].

ولقد جمع قوله تعالى **﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** جميع ما أعد الله تعالى لأوليائه؛ لأن زوال الخوف يتضمن السلامة من جميع الآفات. وزوال الحزن يقتضي الوصول إلى كل اللذات والمرادات[3].

وقدم عدم الخوف على عدم الحزن.. لأن زوال ما لا ينبغي مقدم على ما ينبغي.

---

(١) و (٢) تفسير القرطبي - المجلد الأول - ص٣٢٩.
(٣) تفسير الرازي ج٣ ص٢٧.

وهذا يدل على أن المكلف الذي أطاع الله تعالى لا يلحقه خوف في القبر، ولا عند البعث، ولا عند حضور الموقف، ولا عند تطاير الكتب، ولا عند نصب الموازين، ولا عند الصراط، كما قال الله تعالى: **﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة: هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾**.

قال ابن زيد: لا خوف عليهم أمامهم. فليس شيء أعظم في صدر الذي يموت مما بعد الموت، فأمّنهم الله تعالى منه. ثم سلاهم عن الدنيا فقال (ولا هم يحزنون) على ما خلفوه بعد وفاتهم في الدنيا[١].

هكذا حال المهتدين بهدي الله لا يخافون مما هو آت، ولا يحزنون على ما فات، فإن من سلك سبيل الهدى سهل عليه كل ما أصابه أو فقده، لأنه موقن بأن الصبر والتسليم مما يرضي ربه، ويجلب مثوبته، فيكون له من ذلك خير عوض عما فاته، وأحسن عزاء عما فقده، فمثله مثل التاجر الذي يكد ويسعى وتنسيه لذة الربح آلام التعب[٢].

ولنتأمل في حال من يسافر.. ألا يشبه حال من يموت؟ إن الموت أشبه بالسفر، السفر من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة. فماذا يخشى المسافر عادة؟

ألا يتملكه قلق وخوف؟ قلق على أهله وأولاده الذين سيبتعد عنهم، ويبتعدون عنه.. وخوف مما ينتظره من مجهول في البلد الذي سيرحل إليه؟

ألن يكون المسافر مطمئناً سعيداً حين يخلفه من يرعى أولاده وينفق عليهم ويحميهم، وحين يعلم أن في البلد المسافر إليه من سيستقبله وقد رتّب له كل شيء: العمل ذا الدخل الممتاز، والإقامة المريحة المستقرة، والسيارة التي تنقله إلى عمله وتعيده إلى بيته.. وتذهب به حيث يشاء..؟

كذا المسافرون من هذه الحياة الدنيا إلى الآخرة، إن الله تعالى يطمئن عباده

---

(١) نفسه.
(٢) تفسير المراغي ج١ ص٩٧.

المؤمنين منهم على ماضيهم ومستقبلهم، على ما تركوه وراءهم، وما ينتظرهم أمامهم. على دنياهم التي غادروها وآخرتهم التي هم مقبلون عليها.

أجل، إن وصف تلك الحال يشمل كل لحظات الزمن، الماضية والآتية، ولا يغادر لحظة لا يشملها هذا التبشير بالأمن.

ولعلنا نلحظ نفوساً أخرى، غير نفس المؤمن الراحل عن الدنيا، يشملها هذا التبشير بالأمن، وأعني بها نفوس محبي هذا المؤمن الذين ما زالوا أحياء في هذه الدنيا، وذلك في قوله تعالى: **﴿لا خوف عليهم﴾**. فهذه دعوة لهم إلى أن لا يخافوا على هذا المؤمن الذي رحل عن الدنيا.

وثمة لفتة أخرى تستحق تأملها والوقوف عندها، وهي أن الآيات الأربع عشرة التي تكرر فيها وصف هذه الحال للمؤمنين جاءت جميعها بصيغة الجمع: **﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**، ولم تأت أي واحدة منها بصيغة المفرد: «لا خوف عليه ولا هو يحزن». ولعل هذا يؤكد معنى الطمأنينة والأمن الذي يبشر به هذا الوصف، لأن صيغة الجمع تنبئ بأن هذا المؤمن الراحل عن الدنيا ليس وحده، ولم يذهب إلى مكان يبقى فيه وحده، إنما هو انضم إلى ركب المؤمنين من الأنبياء والشهداء والصالحين.. وحسن أولئك رفيقاً.

بينما، في مقابل ذلك، نجد صيغة المفرد تتكرر مراراً لوصف حال الكافر لتأكيد الخوف الذي يرافقه وينتظره:

- **﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾** (البلد: ٥).
- **﴿فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾** (البقرة: ٢٠٦).
- **﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾** (النبأ: ٤٠).
- **﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾** (آل عمران: ١٩).
- **﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾** (هود: ١٧).

والآيات في هذا كثيرة يضيق المجال عن عرضها جميعاً.

ولقد جاءت الآيات الأربع عشرة جميعها بصيغة الجمع على الرغم من أن بعضها بدأ الحديث عن المؤمن بصيغة المفرد. كما في هذه الآيات الكريمات:

- **﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليه ولا هم يحزنون﴾** (البقرة: ١١٢).
- **﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** (المائدة: ٦٩).
- **﴿فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** (الأنعام: ٤٨).
- **﴿فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** (الأعراف: ٣٥).

وإذا علم القارئ الكريم ما يحمله هذا الوصف من بشارة عظيمة، ثم أراد أن يعرف من يستحقها من الناس، فإن الآيات الكريمات الأربع عشرة تحدثنا عنهم وتبينهم لنا كما يلي:

٥ - الذين ينفقون أموالهم في كل حين وعلى كل حال:

﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (البقرة: ٢٧٤).

٦ - من آمن وأصلح:

﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين.. فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (الأنعام: ٤٨).

٧ - من اتقى وأصلح:

﴿يابني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (الأعراف: ٣٥).

٨ - أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون:

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون

لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة. لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ (يونس ٦٢-٦٣-٦٤).

٩ - عباد الله الذين آمنوا وكانوا مسلمين:

﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين. ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون﴾ (الزخرف: ٦٨-٦٩-٧٠).

١٠ - الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا:

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (الأحقاف: ١٣).

وإذا كان وصف الحال في الآيات الأربع عشرة جاء فيها جميعها جملة اسمية فإن آية (خامسة عشرة) جاء فيها جملة فعلية على لسان الملائكة تخاطب المؤمنين حين موتهم:

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون. نزلاً من غفور رحيم﴾ (فصلت: ٣٠-٣٢).

«تتنزل عليهم الملائكة» قيل عند الموت. وقيل في مواقف ثلاثة: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث إلى القيامة.

«أن لا تخافوا» يقول الرازي: واعلم أن الغاية القصوى في رعاية المصالح: دفع المضار وجلب المنافع. ومعلوم أن دفع المضرّة أولى بالرعاية من جلب المصلحة. والمضرّة إما أن تكون حاصلة في المستقبل أو في الحال أو في الماضي.

وها هنا دقيقة عقلية.. وهي أن المستقبل مقدم على الحاضر، والحاضر مقدم على الماضي، فإن الشيء الذي لم يوجد ويتوقع حدوثه يكون مستقبلاً، فإذا وجد يصير حاضراً، فإذا عدم وفني بعد ذلك يصير ماضياً.

وإذا ثبت هذا فالمضار التي يتوقع حصولها في المستقبل أولى بالدفع من المضار

الماضية. وأيضاً الخوف عبارة عن تألم القلب بسبب توقع حصول مضرّة في المستقبل، والغم عبارة عن تألم القلب بسبب فوت نفع كان موجوداً، في الماضي. وإذا كان كذلك فدفع الخوف أولى من دفع الحزن الحاصل بسبب الغم.

إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى أخبر عن الملائكة أنهم في أول الأمر يخبرون بأنه لا خوف عليكم بسبب ما تستقبلونه من أحوال القيامة. ثم يُخبِرون بأنه لا حزن عليكم بسبب ما فاتكم من أحوال الدنيا. وعند حصول هذين الأمرين فقد زالت المتاعب والمضار بالكلية.

ثم بعد الفراغ منه يبشرون بحصول المنافع وهو قوله تعالى ﴿**وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**﴾.

واعلم أن هذا الكلام يدل على أن المؤمن عند الموت وفي القبر وعند البعث لا يكون فازعاً من الأهوال ومن الفزع الشديد؛ بل يكون آمن القلب، سالم الصدر، لأن قوله تعالى ﴿**أن لا تخافوا ولا تحزنوا**﴾ يفيد نفي الخوف والحزن على الإطلاق(١).

ولعل قارئاً يقول: لا شك في تطمين الله تعالى عباده المؤمنين وبشارته لهم بعدم الخوف وعدم الحزن. وكذلك تطمين الملائكة. لكننا نأمل أيضاً لو نُقل إلينا هذا التطمين وتلك البشارة من بشر مثلنا عاينوا هذا ولمسوه بأنفسهم!

وأقول: وهذا ما كان فعلاً، فقد نقل تعالى إلينا هذا التطمين وتلك البشارة عن شهداء معركة أحد وذلك في قوله تعالى: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾.

يقول ابن كثير رحمه الله: «ويستبشرون» أي ويسرون بلحوق من خلفهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله

---

(١) تفسير الرازي ج٢٧ - ص١٢٢-١٢٣.

الذي أعطاهم، قال السدّي: يُؤتى الشهيد بكتاب فيه: يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا. ويقدم عليك فلان يوم كذا وكذا.. فيُسرُّ بذلك كما يسر أهل الدنيا بغائبهم إذا قدم. قال سعيد بن جبير: لما دخلوا الجنة.. ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا: يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة.. حتى يستشهدوا فيصيبوا ما أصابنا من الخير. فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمرهم وما هم فيه من الكرامة، وأخبرهم - أي ربهم - أني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أنتم فيه.. فاستبشروا بذلك، فذلك قوله: **﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**[1].

هكذا يبشر الله عباده المؤمنين بألا خوف عليهم ولا هم يحزنون، في آيات كثيرة، وعلى لسان الملائكة، وعلى لسان المؤمنين الذين سبقونا بالإيمان.

(١) تفسير ابن كثير - الجزء الأول - ص٤٢٨.

معية الله

كيف يكون شعور الأمن عندك، وأنت تعلم أن هناك حارساً مدرباً، يتولى حمايتك، ويقوم بحراستك، لا تنام عينه حين تنام عينك؟

ما مدى طمأنينتك، إلى عدم الفقر، حين تكون لك أرصدة كبيرة، في جميع مصارف العالم، وبمختلف العملات، وتكون لك معها أملاك وعقارات وثروات؟

إلى أي حد يبلغ إحساسك بالقوة؛ حين تكون قائد جيش كبير، حديث السلاح، عظيم التدريب، يطيعك كل فرد فيه؟

لا شك في أنك ستشعر، إذا تحقق لك جميع ما سبق، بالعزة والمنعة، والقوة والعظمة، والغنى والأمن.

كيف تشعر إذن، إذا مالك الملك، ورب الأرباب، وملك الملوك، العظيم الجبار، القوي العزيز، من بيده كل شيء... كان معك!؟

كيف يمكن أن تخاف؛ أو تفتقد الأمن، أو تحس بالهلع والجزع، إذا كان الله تعالى معك؟!

كيف يمكن أن تخشى الفقر؛ ومالك الملك، رازق كل إنسان وحيوان ونبتة، من له ما في السموات وما في الأرض... كان معك؟!

كيف تشعر بالضعف والهوان، إذا العزيز الحكيم، من له جنود السموات والأرض، خالق كل شيء... كان معك؟!

هذه هي معية الله.. جلّ شأنه.. وعزّ قدره...

تحيل الضعف قوة، والفقر غنى، والخوف أمناً، والذلة عزاً، والقلق طمأنينة.

ولنتأمل في موقفين لرسولين من رسل الله تعالى، استشعرا فيهما معية الله تعالى. في ثقة مطلقة، وإيمان عظيم، وتسليم مطمئن.

الموقف الأول لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، حين كان مع صاحبه الصديق رضي الله عنه، في الغار، والقوم يطلبونهما خارجه، لو نظر أحدهم إلى قدمه لرآهما.

يقول الله تعالى: **﴿إلا تنصروه فقد نصره الله؛ إذ أخرجه الذين كفروا؛ ثاني اثنين إذ هما في الغار؛ إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه، وأيّده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمةُ الله هي العليا، والله عزيز حكيم﴾** (التوبة: ٤٠).

﴿إن الله معنا﴾؛ فلا يضرّ جمعهم، ولا ينفع سلاحهم، ولا يخيف قربهم، ولا يجدي عزمهم...

﴿إن الله معنا﴾ فلا نخافهم، ولا نرهبهم، ولا نفزع من قوتهم؛ لأنها لا تعني شيئاً أمام قوة الله، ولا تشكل خطراً إزاء عزة الله، ولا تُضعف عزيمةً مع جبروت الله.

فماذا كانت نتيجة هذا اليقين بمعية الله؟ ماذا كانت ثمرته؟

١ - **﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾**.

٢ - **﴿وأيّده بجنود لم تروها﴾**.

٣ - **﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾**.

٤ - **﴿وكلمةُ الله هي العليا﴾**.

٥ - **﴿والله عزيز حكيم﴾**.

فلنتأمل في كل واحدة من هذه الثمرات:

١ - ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾

ما أعظم سكينة الله حين تنزل على قلب المؤمن. فهي الطمأنينة التي تسكن عندها القلوب[١].

وبها يسكن الجأش، ويذهب الروع، ويحصل الأمن[٢].

فلا خوف معها، ولا قلق بعدها، ولا همّ ولا حزن.

إنها ثمرة عظيمة لمعية الله، ثمرة يتمناها كل الناس، في كل الأزمان، لكنهم في هذا الزمان أشد إليها حاجة؛ لأنهم أشد لها فقداً. فالكآبة تخالط نفوسهم وتعلو وجوههم، قلق يستبدّ بعقولهم ويتعب تفكيرهم. همّ متواصل يغشى قلوبهم ويضنك معيشتهم.

ولن يزيل هذا كله، ويمحوه من العقل والنفس والقلب.. إلا سكينة الله تنزل عليهم.

لكن هذه السكينة لن تكون إلا لمن كان مع الله.. وكان الله معه.

٢ - ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾

إنها ثمرة عظيمة أخرى من ثمرات معية الله تعالى.

إنها تجعل كل ضعف قوة، وتحيل كل خوف أمناً، وتقلب كل تراجع وتردد إقداماً وعزماً.

ما أعظم أن يعلم المرء أن هناك جنوداً تحرسه. ليست جنوداً وضعها البشر، وسلّحها البشر. إنها جنود الله ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ (المدثر: ٣١).

إنها ليست جنوداً من الأرض وحدها، بل هي من السماء أيضا:

﴿ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً﴾ (الفتح: ٤).

---

(١) روح المعاني - مجلد ٥ - ص٩٨.
(٢) الجامع للقرطبي - ج٨ - ص١٤٨.

﴿ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ (الفتح: ٨).

وهي جنود ترى أعداءهم ولا يرونها حتى يحذروها ويتقوها:

﴿وأيدهم بجنود لم تروها﴾ (الأحزاب: ٩).

﴿وأنزل جنوداً لم تروها.. وعذب الذين كفروا﴾ (التوبة: ٢٦).

٣ - ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾

ثمرة عظيمة ثالثة من ثمرات معية الله.

فمهما قويت كلمة الذين كفروا، ومهما اجتمع عليها الناس، فإنه سبحانه يجعلها السفلى.

فالمشركون الذين اجتمعوا في دار الندوة، واتفقت كلمتهم على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخفقوا إخفاقاً ذريعاً، ونجّى الله نبيّه رغم أنوفهم، وحفظه من كيدهم، مع أنهم لم يدعوا في القوس منزعاً في إيصال الشر إليه، وجعلوا الدية لمن يقتله أو يأسره عليه الصلاة والسلام، وخرجوا في طلبه عليه الصلاة والسلام رجالاً وركباناً، فرجعوا صفر الأكف سود الوجوه، وصار معه بعض من كان عليه، مثل سراقة[1].

هكذا تصبح كلمة الذين كفروا حين يتآمرون على من كان الله معه، تصبح سفلى، ومهزومة، ومغلوبة، ومقهورة.

٤ - ﴿وكلمة الله هي العليا﴾

هي العليا دائماً وأبداً.

فلا خوف، على من كان مع الله، من أن تنزل عن عليائها يوماً، بل لحظة، لا خوف عليه من أن تضعف أو أن تتراجع.

(١) روح المعاني - مجلد ٥ - ٩٨-٩٩.

وفي إضافة (الكلمة) إلى (الله) إعلاء لمكانها، وتنويه لشأنها[١] فكيف بمن يؤمن بها، ويدعو إليها، ويعيش في كنفها!

و«ستظل كلمة الله في مكانها العالي متنصرة قوية نافذة لأنها هي العليا طبيعة وأصلا، بدون تصييرٍ متعلقٍ بحادثةٍ معينة»[٢].

٥ - ﴿والله عزيز حكيم﴾

تأكيد لما سبق كله، وتفسير له كله.

فهذا وعد الله لمن كان مع الله، وكان الله معه، لأن الله تعالى **﴿عزيز حكيم﴾** أي قاهر غالب[٣].

فكيف لا يشعر بالعزة من كان العزيز الحكيم معه!

كيف لا يحس بالمنعة من كان القاهر الغالب معه!

كيف لا يُنصر مَنْ كان مَنْ بيده النصر معه!

ولنتأمل أخيراً في تكرار لفظ الجلالة خمس مرات في هذه الآية الواحدة:

- **﴿فقد نصره الله﴾**.
- **﴿إن الله معنا﴾**.
- **﴿فأنزل الله سكينته﴾**.
- **﴿وكلمة الله هي العليا﴾**.
- **﴿والله عزيز حكيم﴾**.

ولقد بحثت عن آية أخرى في القرآن الكريم؛ تكرر فيها لفظ الجلالة خمس مرات؛ فلم أظفر بغير آية أو آيتين!

---

(١) تفسير المراغي - ج٨ - ص٢١٨.
(٢) في ظلال القرآن - ج١٠ - ص١٦٥٦.
(٣) التفسير الكبير - ج١٦ - ص٦٩.

فماذا يعني تكرر لفظ الجلالة في هذه الآية؛ على الرغم من أنه كان يمكن إيراد الضمير مكان لفظ الجلالة مثل: وكلمته هي العليا، وهو العزيز الحكيم. كما ذكر الفراء. لكن النحاس قال: الذي ذكره الفراء لا يشبه الآية، ولكن يشبهها ما أنشد سيبويه:

لا أرى الموتَ يسبقُ الموتَ شيءٌ نغصّ الموتُ ذا الغنى والفقيرا

يقول القرطبي: فهذا حسن جيد لا إشكال فيه، بل يقول النحويون الحذاق: في إعادة الذكر في مثل هذا فائدة، وهي أن فيه معنى التعظيم(١).

وفيه أيضاً بعث لمشاعر الأنس في نفس من كان مع الله وكان الله معه، حين يقرأ هذه الآية الكريمة، فيتردد ذكر الله تعالى، بلفظ الجلالة نفسه، خمس مرات، مرة بإعلان نصره لعبده، وأخرى بتأكيد معيته، وثالثة بإنزال سكينته، ورابعة بالتذكير بكلمته العليا، وخامسة ببيان عزته وحكمته، فأي قوة يستشعرها العبد أعظم من هذه القوة، وأي طمأنينة تنسكب في نفسه أعمق أثراً من هذه الطمأنينة؟!!

الموقف الثاني كان للنبي موسى عليه السلام، حين أسرى بعباد الله، بوحي من الله وتدبير. فأتبعهم جنود فرعون في الصباح بمكر من فرعون وبطر. ثم ها هو ذا المشهد يقترب من نهايته، والمعركة تصل إلى ذروتها.. إن موسى وقومه أمام البحر ليس معهم سفين، ولا هم يملكون خوضه، وما هم بمسلحين. وقد قاربهم فرعون بجنودٍ شاكي السلاح يطلبونهم ولا يرحمون! وقالت دلائل الحال كلها: أن لا مفر والبحر أمامهم والعدو خلفهم: «قال أصحاب موسى: إنا لمدركون».. وبلغ الكرب مداه، وإن هي إلا دقائق تمر ثم يهجم الموت ولا مناص ولا معين!

ولكن موسى الذي تلقى الوحي من ربه، لا يشكُّ لحظة وملء قلبه الثقة بربه، واليقين بعونه، والتأكد من النجاة، وإن كان لا يدري كيف تكون، فهي لا بد كائنة والله هو الذي يوجهه ويرعاه: «قال: كلا إن معي ربي سيهدين»..

---

(١) الجامع لأحكام القرآن - ج٨ - ص١٤٩.

كلا. في شدة وتوكيد. كلا لن نكون مدركين. كلا لن نكون هالكين. كلا لن نكون مفتونين. كلا لن نكون ضائعين «كلا إن معي ربي سيهدين» بهذا الجزم والتأكيد واليقين[1].

لماذا لا نقرأ الآيات جميعها:

﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون، فأرسل فرعون في المدائن حاشرين. إن هؤلاء لشرذمة قليلون. وإنهم لنا لغائظون. وإنا لجميع حاذرون. فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بني إسرائيل. فأتبعوهم مشرقين. فلما تراءى الجمعان؛ قال أصحاب موسى: إنا لمدركون. قال: كلا.. إن معي ربي سيهدين. فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم. وأزلفنا ثمَّ الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين. إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ (الشعراء: ٥٢-٦٨).

إنها الثمرات نفسها، تقريباً، التي أعطاها الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لصاحبه الصديق «لا تحزن إن الله معنا». فقد قال موسى عليه السلام هنا «إن معي ربي سيهدين» فذكر سبحانه هذه الثمرات:

١ - **﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾**.

٢ - **﴿وأزلفنا ثمَّ الآخرين﴾**.

٣ - **﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين﴾**.

٤ - **﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾**.

٥ - **﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾**.

(١) في ظلال القرآن - ج١٩ - ص٢٥٩٨.

فلننظر في كل واحدة من هذه الثمرات أيضاً:

١ - ﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾.

جاءت الثمرة الأولى مباشرة بعد إعلان موسى عليه السلام أن الله تعالى معه: **﴿قال كلا إن معي ربي سيهدين. فأوحينا﴾** تماماً كما جاءت الثمرة الأولى للنبي محمد صلى الله عليه وسلم: **﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا. فأنزل الله سكينته﴾**. وكلتا الثمرتين بدأت بالفاء السببية التعقيبية: «فأوحينا»، «فأنزل»: فلا فاصل بين معية الله تعالى وبين تأييده ونصره.

يقول القرطبي: «فلما عظم البلاء على بني إسرائيل، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه؛ وذلك أنه عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله، وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر، ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه»[1] أي أن الله تعالى جعل نصره لنبيه موسى عليه السلام في عصا ضعيفة بذاتها، كما جعل نصره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في بيت العنكبوت والحمامة التي باضت على باب الغار. وفي هذا دلالة واضحة على أن الأسباب الأرضية، مهما بلغت، لا تأتي بنصرٍ ما لم يأذن الله، وأنها - أي الأسباب الأرضية - مهما ضعفت؛ تأتي بنصره سبحانه إذا اقترنت بقدرته تعالى.

٢ - ﴿وأزلفنا ثمَّ الآخرين﴾

أي وقرّبنا فرعون وقومه، أو جمعناهم، إلى البحر. أي أنه سبحانه أعدّ هزيمة أعداء موسى أيضاً، بعد أن أعدّ النصر له عليه السلام.. كما جعل سبحانه كلمة أعداء النبي محمد صلى الله عليه وسلم من المشركين.. السفلى، والمهزومة، والمغلوبة.

---

(١) الجامع - ج٨ - ص١٠٧.

٣ - ﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين﴾

وهذا تأكيد لنصره سبحانه كثمرة طبيعية لمعيته موسى عليه السلام. بل إن هذه المعية لم تكن سبباً في نصرة موسى عليه السلام وحده، بل وجميع من معه من بني إسرائيل، ومن اتبعهم على دينهم، فلم يهلك منهم أحد.

٤ - ﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾

أتمّ سبحانه النصر لنبيه موسى عليه السلام بإهلاك فرعون وقومه جميعاً؛ بإطباق البحر عليهم، بعد خروج موسى عليه السلام ومن معه، وكان للبحر وجبة (صوت سقوط). روي عن ابن عباس أن بني إسرائيل لما خرجوا سمعوا وجبة البحر، فقالوا: ما هذا؟ فقال موسى عليه السلام: غرق فرعون وأصحابه، فرجعوا ينظرون؛ فوجدوا فرعون وجنوده قد ألقاهم البحر على الساحل، والتعبير عن فرعون وجنوده بـ «الآخرين» للتحقير[١].

٥ - ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾

﴿إن في ذلك لآية﴾ أي أن في الذي حدث في البحر لعبرة دالة على قدرته تعالى، وعلى صدق موسى عليه السلام، من حيث كان معجزة له، وتحذيراً من الإقدام على مخالفة أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم. ثم بين أنهم لم تُجدِهم الآيات والنذر شيئاً: ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي وإن أكثرهم لم يؤمنوا مع ما رأوا من الآيات العظام والمعجزات الباهرات.

يقول الإمام الرازي: «أما قوله تعالى ﴿إن في ذلك لآية﴾ فالمعنى أن الذي حدث في البحر آية عجيبة من الآيات العظام الدالة على قدرته، لأن أحداً من البشر لا يقدر عليه. والدالة على حكمته من حيث أن ما وقع كان مصلحة في الدين

(١) روح المعاني - المجلد العاشر - ص٨٩.

والدنيا. والدالة على صدق موسى عليه السلام من حيث كان معجزة له، وعلى اعتبار المعتبرين به أبداً؛ فيصير تحذيراً من الإقدام على مخالفة أمر الله تعالى وأمر رسوله، ويكون فيه اعتبار لمحمد صلى الله عليه وسلم، فإنه قال عقيب ذلك **﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾** وفي ذلك تسلية له فقد كان يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات عليه»[1].

«وأما قوله **﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾** فتعلقه بما قبله أن القوم، مع مشاهدة هذه الآية الباهرة كفروا، ثم إنه تعالى كان عزيزاً قادراً على أن يهلكهم، ثم إنه تعالى ما أهلكهم بل أفاض عليهم أنواع رحمته.. فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله»[2].

هذه هي الثمار العظيمة لمعية الله تعالى كما وجدناها في موقفين لنبيين كريمين.

ولعل سؤالاً يتبادر إلى الخاطر: ومتى يكون الله مع عبده؟ ومَنْ العبد الذي يكون الله معه؟ لقد بيّن الله تعالى لنا في قرآنه الحكيم مَنْ مِنَ العباد يكون سبحانه معهم:

١ - الصابرون:

- **﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾** (البقرة: ١٥٣).
- **﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين﴾** (البقرة: ٢٤٩).
- **﴿.. فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين. وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين﴾** (الأنفال: ٦٠).

(١) و (٢) التفسير الكبير - ج٢٤ - ص١٤١.

٢ - المتقون:

- ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ (البقرة: ١٩٤).
- ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة، واعلموا أن الله مع المتقين﴾ (التوبة: ٣٦).
- ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة، واعلموا أن الله مع المتقين﴾ (التوبة: ١٢٣).
- ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ (النحل: ١٢٨).

٣ - المحسنون:

- ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين﴾ (العنكبوت: ٦٩).
- ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ (النحل: ١٢٨).

٤ - المؤمنون المصلون المزكون المتصدقون:

- ﴿وقال الله: إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم؛ فقد ضل سواء السبيل﴾ (المائدة: ١٢).

أرأيتم إلى معية الله تعالى ما أعظمها، وما أحسنها، وما أكثر ثمارها لمن نالها وحظي بها!

إن الله يدافع عن الذين آمنوا

أتشعر بالاطمئنان، حين توكّل أبرع محام، للدفاع عنك، في قضية تعني لديك الكثير؟

أيملأ قلبك ونفسك الأمن، إذا كان مئات الحراس، يقومون بحراستك، ودفع ما يمكن أن تتعرض له من خطر؟

أتشعر بالمنعة والعزة، إذا كان جيش بأسلحته الحديثة، يقف طوع أمرك ورهن إشارتك؟

لعلك تجيب عن هذه الأسئلة جميعها بـ «نعم».

كيف إذا كان المدافع عنك هو الله عز وجل! ألا يجعلك هذا قوياً به سبحانه، مطمئناً إلى نصرته، آمناً من كل خطر وعدو؟

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: **﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾**. الله الجبار ذو الملكوت، القوي العزيز المنتقم، من أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.. يدافع عن الذين آمنوا.

يقول ابن كثير رحمه الله «يخبر تعالى أنه يدافع عن عباده الذين توكلوا عليه، وأنابوا إليه، شر الأشرار، وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم، كما قال تعالى: «أليس الله بكاف عبده» وقال: «ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدراً» (مجلد ٣ ص٢٢٤).

أجل، يحفظ الله المؤمنين ويكلؤهم وينصرهم، إذا آمنوا به سبحانه، وتوكلوا عليه حق التوكل، وأنابوا إليه جل شأنه وحده.

قال الرازي «يدافع»، أي يبالغ في الدفع عنهم، ولم يذكر سبحانه ما يدفعه (عن المؤمنين) حتى يكون أفخم وأعظم وأعم.

ثم يضيف رحمه الله: هذه الآية بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار، وكف بوائقهم عنهم، وهي كقوله (لن يضروكم إلا أذى) وقوله (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا) وقوله (إنهم لهم المنصورون) وقوله (أخرى تحبونها: نصر من الله وفتح قريب) «ج٢٣ ص٣٨ الرازي».

إنها آيات كثيرة في كتاب الله تعالى تبشر المؤمنين بنصر الله، وعونه، وحفظه المؤمنين، وتأييده لهم.

آيات تبعث القوة في نفوس المؤمنين، وتمنحها العزة بالله، وتجعلها غير هيّابة ولا وجلة.

وهذه القوة تجعل المؤمنين أرغب في الجهاد، لا أرغب عنه، فلا يُفهم من دفاع الله سبحانه أن يركن المؤمنون إلى دنياهم فلا يقاتلوا عدوهم.

ولعل سيد قطب خير من يشرح هذا ببيانه الجميل حين يقول رحمه الله في قوله تعالى: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾: فقد ضمن للمؤمنين إذن أنه هو تعالى يدافع عنهم، ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حتماً من عدوه، ظاهر حتماً على عدوه.. ففيم إذن يأذن لهم بالقتال؟ وفيم إذن يكتب عليهم الجهاد؟ وفيم إذن يقاتلون فيصيبهم القتل والجرح، والجهد والمشقة، والتضحية والآلام... والعاقبة معروفة، والله قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا جهد ولا مشقة، ولا تضحية ولا ألم، ولا قتل ولا قتال؟

والجواب أن حكمة الله في هذا هي العليا، وأن لله الحجة البالغة.. والذي ندركه نحن البشر من تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعارفنا أن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماتها من «التنابلة» الكسالى، الذين يجلسون في استرخاء، ثم يتنزل عليهم نصره سهلاً هيناً بلا عناء، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويرتلون القرآن ويتوجهون إلى الله بالدعاء، كلما مسهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء!

نعم إنهم يجب أن يقيموا الصلاة، وأن يرتلوا القرآن، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء في السراء والضراء، ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها، إنما هي الزاد الذي يتزودونه للمعركة، والذخيرة التي يدخرونها للموقعة، والسلاح الذي يطمئنون إليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه، ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله.

لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم؛ كي يتم نضجهم هم في أثناء المعركة؛ فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجه الخطر، وهي تدفع وتدافع، وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة.. عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدي دورها، ولتتساند مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة، ولتؤتي أقصى ما تملكه، وتبذل آخر ما تنطوي عليه، وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها وما هي مهيئة له من الكمال. المجلد الرابع ص٢٤٢٦.

جمال وزينة طوال النهار

لا أعرف، في شرائع العالم وتقاليده وعاداته ونظمه وقوانينه كلها، دعوة إلى التزين والتجمل خمس مرات في اليوم، إلا في شريعة الإسلام العظيمة، كما في قوله تعالى ﴿**يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد**﴾. وإذا كانت لفظة «مسجد» هنا تعني الصلاة، فإن الدعوة إلى التزين قد تتجاوز المرات الخمس في اليوم إذا أضفنا إلى الصلاة الفريضة صلاة الضحى وصلاة التهجد والقيام.

كان أبو حنيفة رحمه الله اتخذ لباساً لصلاة الليل، وهو قميص وعمامة ورداء وسراويل، قيمة ذلك ألف وخمسمائة درهم، يلبسه كل ليلة ويقول: التزين لله تعالى أولى من التزين للناس[١].

ألن يكون المسلمون شامة بين الناس حين يستجيبون لهذه الدعوة الربانية العظيمة، فيتجملون ويتزينون آناء الليل وأطراف النهار؟

ألن يجد الزوج زوجته المحافظة على الصلاة جميلة دائما، وألن تجد الزوجة زوجها المحافظ على الصلاة جميلاً دائماً؟

وإذا كان الوضوء يسبق الصلاة فقد جمعنا النظافة والزينة في الصلاة، فهل في العالم كله من يقوم بهذا التنظف والتزين مرات عدة كل يوم؟!

ولقد رأى بعض العلماء في قوله تعالى ﴿**خذوا زينتكم**﴾ معنى الأمر، والأمر للوجوب، فثبت أن أخذ الزينة واجب[٢].

روي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه فقيل له: يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تلبس أجود ثيابك؟ فقال:

---

(١) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان للبروسوي ج٨ ص٥٣١.
(٢) فخر الدين الرازي - التفسير الكبير - مجلد ٧ - ص٦١.

إن الله تعالى جميل يحب الجمال فأتجمل لربي وهو يقول: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ فأحب أن ألبس أجمل ثيابي.

ما أجمل هذا الفهم، بل ما أجمل هذا الالتزام، ولنا أن نتصور المسلمين يدخلون المساجد ويخرجون منها وهم في أحسن لباس، وأجمل هيئة، وأبهى صورة.

وما دامت الصلوات الخمس تشمل ساعات النهار جميعها وزلفاً من الليل، فإن المسلم سيبقى جميلاً متزيناً طوال وقته، وسيلتقي الناس وهو في هذه الصورة الجميلة، والهيئة الحسنة.

ولنا أن نضيف إلى جمال الصورة وحسن الهيئة واللباس (أي ما تراه العين) الرائحة الزكية التي يشمها الأنف، حين يفهم المسلم أن من التزين للصلاة وضع الطيب. يقول ابن كثير في قوله تعالى: ﴿خذوا زينتكم﴾: يستحب التجمل عند الصلاة، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك[1].

ها قد أضاف ابن كثير رحمه الله السواك وجعله من تمام الزينة، فأي آثار طيبة حسنة يتركها المسلم الذاهب إلى الصلاة والعائد منها في نفس من يلتقيه، وفي عينه، وفي أنفه؟!

وأي صحة بدنية ونفسية تمنحها الصلاة مؤديها، من خلال وضوء يسبقها، وتجمل وتزين يرافقانها، وراحة وطمأنينة ورضى تخلفها وتتركها.

هل تعرفون في العالم كله شريعة أو قانوناً أو نظاماً يدعو الناس إلى التزين والتجمل والتطيب.. مرات عدة كل يوم، غير الإسلام العظيم؟

(١) تفسير القرآن العظيم - ج٢ - ص٢١٠.

إنما تقضي هذه الحياة الدنيا

﴿فاقض ما أنت قاض.. إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾.

عبارة قالها السحرة للطاغية فرعون، حين توعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا، غير مبالين بعذابه، وغير خائفين من وعيده، بعد أن ملأ الإيمان قلوبهم، وعمر اليقين نفوسهم. وهي عبارة تصلح لتكون شعاراً للمؤمنين في كل زمان، وفي كل مكان، يرفعونه في وجه كل طاغية مستبد، مهما كان العذاب شديداً:

﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم؟ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلّبنكم في جذوع النخل، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى﴾.

إنه عذاب قد تفزع منه نفوس خلت من الإيمان، وفقدت اليقين، لكن النفوس الممتلئة إيماناً ويقيناً تقول: «لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات، والذي فطرنا، فاقض ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا». فهذه الحياة الدنيا تبقى محدودة مهما امتدت أيامها، وقصيرة مهما طال زمانها، وهينة مهما عظم سلطانها.

هكذا المؤمنون يصبرون على عسف الطغاة، ووعيد المستكبرين، وتسلط الحاكمين، وسياط الجلادين.

إنهم يتألمون، ويكابدون، ويُؤْذَوْن، وقد يُحرّقون ويصلبون، ويُسجنون ويُنفون، لكنهم يرون هذا كله محصوراً في هذه الحياة الدنيا، محدوداً بأيامهم فيها، فلا الطغاة باقون، ولا عذابهم مستمر، ولا حكمهم أبدي: «إنما تقضي هذه الحياة الدنيا».

إن ربهم الذي آمنوا به، وصبروا في سبيله، واحتملوا العذاب ابتغاء مرضاته «خير وأبقى»، خير من كل ما في هذه الدنيا، وأبقى من أيامها الفانية.

فالعذاب الحقيقي الذي يجب أن يُفزع منه، ويحرص الإنسان على أن يتوقاه، هو عذاب جهنم الخالد.

والنعيم الذي ينبغي أن يُرغب فيه، ويسعى الإنسان إليه، هو نعيم الله الخالد في جنة عرضها كعرض السماء والأرض:

﴿إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر، والله خير

وأبقى. إنه من يأت ربه مجرماً فإن له نار جهنم لا يموت فيها ولا يحيى، ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى؛ جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء من تزكى﴾.

هكذا فعل الإيمان في قلوب السحرء الذين كانوا قبل قليل يعتزون بفرعون، فصاروا يعتزون بالله تعالى، أفما آن للذين يسمعون القرآن سنوات طويلة أن يبيعوا دنياهم لله طمعاً في آخرته؟

قال الحسن: سبحان الله! القوم كفار، وهم أشد الكافرين كفراً؛ ثبت في قلوبهم الإيمان في طرفة عين؛ فلم يتعاظم عندهم أن قالوا (اقض ما أنت قاض) في ذات الله تعالى.. والله إن أحدكم اليوم ليصحب القرآن ستين عاماً ثم إنه يبيع دينه بثمن حقير!

«ولكن أنى للطغاة أن يدركوا هذا السر اللطيف؟ أنى لهم أن يدركوا كيف تتقلب القلوب؟ وهم قد نسوا لطول ما طغوا وبغوا، ورأوا الأتباع ينقادون لإشارة منهم، نسوا أن الله هو مقلب القلوب، وأنها حين تتصل به، وتستمد منه، وتشرق بنوره، لا يكون لأحد عليها سلطان:

﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم؟ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر، فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنكم في جذوع النخل، ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى﴾.

التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة، ويسلطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح.

ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة. قوة الوحوش في الغابة. القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب: **﴿ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى﴾!**

ولكنه كان قد فات الأوان. كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت الذرة الصغيرة بمصدرها الهائل؛ فإذا هي قوية قويمة، وإذا القوى الأرضية كلها ضئيلة ضئيلة، وإذا الحياة الأرضية كلها زهيدة زهيدة. وكانت قد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لا تبالي أن تنظر بعدها إلى الأرض وما بها من عرض زائل، ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه.

قلة المال.. هل تكون نعمة؟

هل تكون قلة المال بين يديك. . نعمة؟ أتعجب إذا قال لك واحد: الحمد لله الذي مَنَّ عليّ. . فلم يفض المال بين يدي؟

قد لا يقبل بعض الناس ذلك، ويرون أن المال الكثير هو النعمة، ونقصانه هو النقمة. لكن القرآن الكريم يصحح هذا المفهوم الخاطئ، في عدد من آياته الكريمة، ويبيّن لنا أن النعمة هي في هدى الله عبده إلى الحق، سواء كثر ماله أم قل، زاد رصيده النقدي أم نقص. . وخير شاهد في هذا قصة قارون.

يقول ابن كثير في قوله تعالى على لسانهم **﴿ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾**: أي ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه؛ فإن الله يعطي ويمنع، ويضيّق ويوسّع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة، وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب».

ويقول ابن كثير في قوله تعالى على لسانهم: **﴿لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا﴾** أي لولا لطف الله بنا وإحسانه لخسف بنا كما خسف به لأننا وددنا أن نكون مثله.

النعمة الحقة إذن هي رحمة الله والإيمان به سبحانه، وليست في كثرة المال والعرض، يقول القرطبي: «لولا أن منَّ الله علينا» بالإيمان والرحمة وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البغي والبطر.

أما صاحب الظلال فيقول: «وقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس، ولم يؤتهم ما آتى قارون، وهم يرون المصير البائس الذي انتهى إليه بين يوم وليلة. وصَحَوْا إلى أن الثراء ليس آية على رضا الله، فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده، ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضا والغضب. ولو كان دليل رضاه

ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف، إنما هو الابتلاء الذي قد يعقبه البلاء. وعلموا أن الكافرين لا يفلحون. وقارون لم يجهر بكلمة الكفر.. ولكن اغتراره بالمال، ونسبته إلى ما عنده من العلم جعلهم يسلكونه في عداد الكافرين، ويرون في نوع هلاكه أنه هلاك للكافرين.

هكذا يتضح الدرس، وتظهر العبرة، ويتصحح المفهوم؛ فهل يصحح الأثرياء تصوراتهم ويدركون أن ما عندهم من مال إنما هو من الله، آتاهم إياه، ولم يؤتوه على علم عندهم، وأن عليهم أن يؤدوا ما أوجبه سبحانه فيه من حقوق.

إن المتصلين بالله لهم ميزان يقيم الحياة، وفي نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع، وهم أعلى نفسياً، وأكبر قلباً من أن يتهاووا ويتصاغروا أمام قيم الأرض جميعاً. ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد. وهؤلاء هم «الذين أوتو العلم» العلم الصحيح الذي يقوّمون به الحياة حق التقويم.

وإذا استقر هذا العلم في نفوس الأفراد جميعاً، فلن يجد الحقد له مكاناً في نفوس من لم يؤتهم الله مالاً كثيراً، ولن يجد البطر له مكاناً في نفوس من آتاهم الله مالاً كثيراً، بل قد يشفق الفقراء على الأثرياء الذين أطغاهم ما عندهم من مال فحرموا رضا الله ورحمته، وقد يغبط الأثرياء من لم يؤتوا مالاً كثيراً فنجوا من محاسبتهم عليه يوم القيامة: من أين اكتسبوه وفيم أنفقوه. إن استقرار هذا العلم ينقذ المجتمع من ذاك السباق المحموم على جمع المال، والتنافس على الدنيا، ويرتقي بالنفوس ويهذبها، وينشر الرحمة والحب والإيثار بين جميع الأفراد. وإذا تحقق ذلك، تراجعت الجريمة، ووصلت الأرحام، وخلت المحاكم، وعمّ الخير، وأمن جميع الناس.

أفليس لنا أن ندعو إلى تربية الصغار على هذه النظرة إلى المال وامتلاكه وإلى تعليم الناس جميعاً هذا العلم الذي يقيهم من شرور كثيرة؟!

أسعد لقاء

لا أحسب أن هناك دعوة، من حبيب للقاء حبيبه، تشوّق إلى هذا اللقاء، وتشد إليه، وتحبب المرء فيه،مثل دعوة الله للنفس المؤمنة إلى لقائه سبحانه إثر الموت.

هذه الدعوة تجعل الموت فرحاً عظيماً، وسعادة مطلقة، وغاية تحبها النفس وترضى بها.

اقرؤوا قوله تعالى: **﴿يا أيتها النفس المطمئنة.. ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾**.

﴿يا أيتها النفس﴾.

نداء رخي ندي، يجعل النفس تصيخ السمع، وتوجّه الانتباه، وقد غادرت الجسد الفاني، إلى الخطاب الموجّه إليها... لترى ما فيه بلهفة.

﴿يا أيتها النفس المطمئنة﴾.

المطمئنة إلى عدل ربها، وقضاء ربها، ووعد ربها لها بجنة الخلد.

المطمئنة على ما تركت من زوج وولد في الدنيا، وأهلٍ يحتاجون إلى عون ورعاية، فهم في حفظ الله.

المطمئنة إلى ما ينتظرها من ثواب جزيل، وفضل عظيم، فهي غير قلقة، غير خائفة، آمنة أمناً أبدياً.

﴿ارجعي إلى ربك﴾.

ولنقف قليلاً عند **﴿ارجعي﴾**، ولنتأمل كيف أنها دعوة للرجوع إلى الله تعالى وليس الذهاب إليه، ففي الرجوع راحة وفرح ورضا.

ألا ترون إلى المهاجر حين يبلغونه أنه عائد إلى وطنه بعد طول غياب! ألا ترون البِشر يطفح من وجهه، والسعادة تغمر قلبه، واللهفة تملك عليه نفسه! ألا

ترون إلى الغائب عن بيته زماناً، وقد أزف موعد رجوعه، كيف يثور الشوق في قلبه إلى منشئه.. ليلقي بأتعابه وأعبائه كلها على باب بيته... ويدخل وقد ألقى بجسده الذي هدّه السفر.. إلى أحد مقاعده التي اشتاق إليها.. مسترخياً مرتاحاً.. مطمئناً!

هكذا النفس المطمئنة.. إنها لا تذهب إلى ربها.. بل ترجع إليه.. ترجع فرحة مطمئنة.. سعيدة هانئة.. ﴿راضية مرضية﴾.

ما أعظم هذا الوصف لحال النفس حين عودتها إلى ربها وما أوجزه وأخصره: ﴿راضية مرضية﴾.

راضية بما كتب لها في الدنيا وقد رحلت عنه، راضية بما ابتليت به وصبرت عليه، راضية بما اختاره الله تعالى لها في الدنيا التي فارقتها منذ قليل.

وهي كذلك راضية بما أعده لها ربها من نعيم مقيم، وثواب عظيم، وسعادة أبدية، وجنة تخلد فيها.

ومع رضاها.. هي مرضية، مرضية من الله تعالى ﴿ورضوان من الله أكبر﴾. فما أعظمه من كسب، وما أكبره من فوز، ليس بعدهما كسب أو فوز.

قال الحسن البصري: «إن الله تعالى إذا أراد أن يقبض روح عبده المؤمن اطمأنت النفس إلى الله عز وجل.. واطمأن الله إليها».

ويقول ابن كثير: «راضية» أي في نفسها «مرضية» أي قد رضيت عن الله ورضي الله عنها وأرضاها.

ويقول صاحب الظلال: «إنها عطفة تتنسم فيها أرواح الجنة.. منذ النداء الأول: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة﴾.. المطمئنة إلى ربها. المطمئنة إلى طريقها، المطمئنة إلى قدر الله بها والمطمئنة في السراء والضراء، وفي البسط والقبض، وفي المنع والعطاء، المطمئنة فلا ترتاب، والمطمئنة فلا تنحرف، والمطمئنة فلا تتلجلج في الطريق، والمطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرعيب...».

﴿فادخلي في عبادي﴾.

وهذا تطمين آخر للنفس المطمئنة، وبشرى تضم إلى البشار[1] - التي قبلها، بشرى سبقت البشرى بالدخول إلى الجنة، وفي هذا لفتة لطيفة يحسن الوقوف عندها قليلاً.

لقد دُعيت النفس المطمئنة هنا إلى الدخول في عباد الله قبل دخول الجنة **﴿فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي﴾**. فلعل النفس ترهب من أن تدخل الجنة وحدها.. مع ما أعد الله تعالى لها فيها من نعيم مقيم.. ولهذا قدّم سبحانه الدخول في عباده قبل الدخول إلى جنته.. إيناساً لها.. لتطمئن النفس حين تكون وسط العباد المؤمنين الذين سبقوها.. فلا ترهب ولا تتهيب.

ثم نلاحظ الأسلوب القرآني في بعث مزيد من مشاعر الاطمئنان في قوله تعالى: **﴿فادخلي في عبادي﴾** فلم يقل «مع عبادي» أو «إلى عبادي». فـ «في» الظرفية ترسم صورة النفس المؤمنة وقد دخلت في وسط العباد المؤمنين، تأنس بهم، وتسعد معهم، وتستعد لدخول الجنة برفقتهم.

ومثله قوله تعالى في الآية ١٦ من سورة الأحقاف: **﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾**.

فقوله سبحانه وتعالى: **﴿في أصحاب الجنة﴾** مثل قوله **﴿في عبادي﴾**، تعبير أكثر إشعاراً بالأمن من تعبير «مع أصحاب الجنة» أو «مع عبادي»، بل حتى حين يكون الحديث عن الإيمان والعمل الصالح اللذين هما سبب دخول الجنة.. منسوبين إلى الفرد المؤمن.. فإن دخول الجنة يأتي بصيغة الجمع:

﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة﴾.

﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة﴾.

ففي بداية الآية الأولى قال سبحانه **﴿ومن يعمل﴾** وفي بداية الثانية **﴿ومن عمل﴾** بصيغة المفرد، ولكن حين ذكر الجزاء، وهو دخول الجنة، ذكره سبحانه وتعالى بصيغة الجمع في كلتا الآيتين: **﴿فأولئك يدخلون الجنة﴾**، ولاشك في أن صورة الدخول الجماعي يبعث في النفس الراحة والرضا والأنس.. أكثر مما تبعثه صورة الدخول الفردي.

ومن جهة مقابلة لم تأت لفظة «خالد»، بصيغة المفرد، إلا لأهل النار، بينما أهل الجنة لم يرد وصف واحدهم بأنه «خالد» بالمفرد: بل وردت جميعها بصيغة الجمع: بقوله تعالى: **﴿كمن هو خالد في النار﴾** محمد: ١٥.

﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها﴾ النساء: ١٤.

﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾ النساء: ٩٣.

﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالداً فيها﴾ التوبة: ٦٣.

هذه الآيات الأربع فقط هي التي وردت فيها لفظة «خالد» بالمفرد في القرآن الكريم، ليس بينها آية واحدة تتحدث عن واحد من أهل الجنة الذين ورد خبر خلودهم بالجمع دائماً، والآيات كثيرة يضيق المجال عن عرضها جميعها هنا، وقد أحصيت قريباً من أربعين آية، كلها تتحدث عن خلود المؤمنين في الجنة بصيغة الجمع.

هذه هي الآيات الآخيرة من سورة الفجر، لا يتجاوز عدد كلماتها الثلاث عشرة كلمة، لكنها ترسم صورة لقاء بهيج للنفس المؤمنة المطمئنة مع ربها الرحمن الرحيم، لقاء تشتاق إليه النفس وتحبه، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه: كما أخبرنا الصادق المصدوق ﷺ.

عن سعيد بن جبير قال: قرأت عند النبي ﷺ **﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾** فقال أبو بكر رضي الله عنه: «إن هذا لحسن» فقال له النبي ﷺ: «**أما إن المَلَكَ سيقول لك هذا عند الموت**».

قال عبدالأعلى بن حماد: دخلت على بشر بن منصور وهو على فراش الموت.. فإذا به من السرور في أمر عظيم، فقلت له: ما هذا السرور وأنت على فراش الموت؟! قال: سبحان الله!! أخرج من بين الظالمين والباغين والحاسدين والمغتابين.. وأقدم على أرحم الراحمين.. ولا أُسرّ؟!!

المحتوى

الموضوع	الصفحة
- مقدمة	٣
- ما أجمل أن يذكرك الله تعالى	٥
- حين يلهي الأمل وتغر الأماني ويعد إبليس	١٠
- لكيلا تأسوا على ما فاتكم	١٨
- لاخوف عليهم ولا هم يحزنون	٢٢
- معية الله	٢٩
- إن الله يدافع عن الذين آمنوا	٤٠
- جمال وزينة طوال النهار	٤٣
- إنما تقضي هذه الحياة الدنيا	٤٥
- قلة المال...هل تكون نعمة	٤٧
- أسعد لقاء	٤٩

صدر للمؤلف

أولاً: عن مكتبة المنار الإسلامية في الكويت
(فاكس ٠٠٩٦٥٢٦٣٦٨٥٤) (هاتف ٠٠٩٦٥٢٦١٥٠٤٥)

١ - من كلمات المسلمات الجديدات.

٢ - إنهم يتفرجون على اغتصابها.

٣ - اعترافات ممثلين وممثلات.

٤ - أخبار ووقفات.

٥ - إلى الممتنعة من زوجها.

٦ - بضدهن تتميز المسلمات.

٧ - سامراً تهجرون

٨ - مذكرات ذات خمار.

ثانياً: عن دار الوطن في الرياض (ص.ب ٣٣١٠ - فاكس ٠٠٩٦٦١٤٧٦٤٦٥٩)

١ - رسالة إلى حواء (المجموعة الكاملة، وتضم الأجزاء من ١ إلى ٦).

٢ - إلى أختي المؤمنة (المجموعة الكاملة؛ وتضم الأجزاء من ١ إلى ٥).

٣ - أحاديث المرأة في الصحيحين (صدر منها جزآن ١ و٢).

٤ - عبر وعظات في توبات الممثلات.

ثالثاً: عن دار المحمدي في جدة (ص.ب ٩٣٤٧ - هاتف ٠٠٩٦٦٢٦٨٩٧٥٠٩)

١ - الزوج المثالي.

٢ - حوار مع صديقي الزوج.

٣ - حوار مع ابنتي.

٤ - حوار مع أختي الزوجة.

٥ - حتى يكون الزواج سكناً.

٦ - كيف تمتلكين فضيلة الصمت.

رابعاً: عن دار ابن حزم في بيروت (ص.ب ١٤/٦٣٦٦ هاتف ٧٠١٩٧٤)

١ - من أجل تحرير حقيقي للمرأة.

٢ - جولات في روضات الجنات.

٣ - هيانكسب.

٤ - صراخ الفطرة.

٥ - تأملات مسلم.

٦ - مذكرات زوجة سعيدة.

٧ - مشكلات تربوية في حياة طفلك.

٨ - مشكلات نسائية (المجموعة الكاملة).

٩ - غير متزوجات لكن سعيدات.

١٠ - قالت لي جدتي.

١١ - محاورات زوجية.

محمد رشيد العويد :

- حصل على ليسانس اللغة العربية وآدابها من جامعة حلب ١٣٩١ هـ ١٩٧١م ثم على دبلوم التربية من جامعة دمشق ١٣٩٢ هـ، ١٩٧٢م، ثم على دبلوم الدراسات العليا من جامعة عين شمس في القاهرة عام ١٣٩٣ هـ، ١٩٧٤م.

- عنوان رسالة الماجستير «أسلوب الحوار في القرآن الكريم».

- عمل في الصحافة الكويتية وكان مديرا لتحرير عدد من المجلات الأسبوعية والشهرية، ومنها مجلة «النور» التي ما يزال مديرا لتحريرها منذ عام ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

- صدر له أكثر من أربعين مؤلفا، معظمها في المرأة والأسرة منها «حوار مع صديقي الزوج» «حوار مع أختي الزوجة»، «حتى يكون الزواج سكناً»، «محاورات زوجية»، «رسالة الى حواء» (مجلد في ٥٠٠ صفحة)، «رسالة إلى مؤمنة» (مجلد في ٣٠٠ صفحة) «من أجل تحرير حقيقي للمرأة» «جولات في روضات الجنات».

- ألقى عشرات المحاضرات وسجل مئات الأحاديث في الإذاعة التلفزيون ومعظمها في قضايا الأسرة والمجتمع

- عنوانه «ص.ب. ٢٤٩٨٩ - الصفاة 13110 - هاتف: ٩٦٥٢٤٠٦٤٨٥ - الكويت.

00000 04660